

## البعد الإسلامي والعالمي لمدينة وهران

رايس زاوي

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

جامعة الجيلالي ليايس - سيدي بلعباس.

مقدمة.

إنّ الناظر، في الكتابات حول مدينة وهران ليجد بأنّ تميّزها كان بتعاقب الأندلسيين والأمويين لإطلاتها على البحر الأبيض المتوسط ولاحتمالها مركز كان بمنأى عن العواصف، كل هذا تأتى بعوامل كثر ساعدت على تجديد وتعمير المدينة وهي عوامل طبيعية وتجارية وسياسية، خلقت منها أن كانت محل استقطاب «جماعة من بحارة الأندلس الذين كانوا يترددون على مرسى وهران»<sup>1</sup>.

التركيبة السياسية والتاريخية.

هناك إرث تعاقب على المدينة وأهلها، شكّلها الكثير من الجاليات التي حظيت بالجنسية الفرنسية منها الأقلية اليهودية بصلوعها في فن الموسيقى مكنها من تعاطي فن الموشحات الأندلسية كفرقة بن سوسان وغيرهم، وهذا معلّم دال على هويتها في الاندماج بخلف القدرة على المحاكاة والعطاء بتزايد الإنتاج الفكري لحضارة سادت.

ثمة منعطف حاسم أحدث تغيير في التركيبة السياسية والتاريخية، ولاسيما الخطاب بنوعيه الديني والفكري، وخصوصا أنّ الفكر الغربي لم يتوان عن المساس بإلحاق الأذى المعنوي للهوية الإسلامية لوهران بخلف التشكيك حول أصالة الفتح الأندلسي الإسلامي للمدينة، فمنهم من أسهب وأطال في الدعاية أنّ الفتح أو كما يسميه هو بالاحتلال الإسلامي كعائق للتطور الحضاري للمجتمع الإسباني فكان مُنقضا لخصمه، والبعض قلل وهجر بأنّ فضل الإسبان على المدينة هو كبير فكان ظالما لنفسه.

لم يكن تعاقب الاستعمار الإسباني حيناً، والفتح الإسلامي حيناً آخر، إلّا لتأكيد تنوع الإرث المتأثري من الخارج (أي تعاقب الجنسيات والاستعمار بكافة أنواعه) والداخل (متمثلاً في عامل الدين ونزوع الشعوب المجتمع إلى الفتح وتخليصهم من السلطة الزمنية للاستعمار)، والذي كان أكبر حدث عرفته مدينة وهران لوجودها على الساحل، كل هذا كان قد بدأ لتأسيس الهوية الإسلامية والمتجسد في تراثها، والذي سمح لها باحتلال بؤرة الفكر وقبلة الإنتاج العلمي في أوجه سواء الفلسفي أو الفقهي وهذا تحت مظلة تنوع الخطابات.

1 - عبد القادر المشرفي، الجزائر بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإيبانيين من الأعراب كبنّي عامر، تحقيق: محمد بن عبد الكريم، بيروت، ص 12.

إن سمة التنوع والتعدد اللذان كانا من إنتاج مدينة وهران يمثل مكسب ينضاف إلى قيم المجتمع لبيان أساس وأصل الهوية، وإن كانت الآن تعرف ضرب من التبدد ليس نتيجة انحلال المجتمع ودنوه من الاضمحلال كإنسان، بل لأنه تتجاذبه مؤثرات جعلته يبحث دوماً عن هويته من وراء البحر والهجرة والموت لعله يقع العثور على أشباه من الهوية، صف إلى ذلك تفتحه على الآخر جعله يجد عن البحث عن الهوية الضائعة.

سماحة الوهرنيين وقابليتهم للأخذ والتقاسم لمسلمين الأندلس المهجرين إسبانيا قد ساعد على الاحتكاك بهم وتعلم حرفهم مما وطد أواصر الأصالة وتجديد التراث بتوطينه من الضياع فكانت وهران قبلة الزائرين والطامعين من إرثها، كل هذا لا لشيء إلا لطمس هويتها وخلف الإنفلاش<sup>1</sup> \* في خطابها.

لا شك أن ربط الهوية بالخطاب، يتوقف على تحليل التطبيقات الثقافية التي مورست من خلال الهوية في ديناميكية تعلقت بالعطاء والإنتاج، فيعد القرن الخامس عشر والسادس عشر فترة الإنتاج والإبداع من خلال خلق تركيبة بين التأصيل والتجديد، فكانت أن استقطبت وهران لوحدها ما ينيف عن 28'000 نسمة « ولم يبقى هناك من المسلمين آنذاك إلا من حبسه أجله »<sup>2</sup>.

يشكّل القرن الخامس عشر والمنتصف الأول من القرن السادس عشر فترة الانقضاء على مدينة وهران، منها أن عام 1533 م، استطاع الجواسيس الإسبان معرفة عدد المدافع والتي تنم عن نية مبينة لاحتلال المدينة، فكان أن ساهم هذا المدّ المتكالب عليها من تمازج الأفكار كبدائية لتحديد الهوية من الخارج، لكن سرعان ما تبين مرامي الاحتلال الإسباني بأشكاله، مما وطد علاقة الجزائريون مع المهجرين الموريسكيون بتقديم المساعدات لهم لاسترجاع الأندلس، فكان أن بدأ تحديد معالم الهوية الثقافية لمدينة وهران والمرتبطة من اقتران الفكر الأندلسي وقابلية المدينة لتعاطي هذا التنوع، والذي أضحى يعبر لاحقاً بإرث إسلامي صرف تجسّد في الهندسة المعمارية أكثر، بحيث لم يستطع الحرفيون والشغوفون بالثقافة والفكر الحياد عنه ولو أنموذة والذي لازال، محافظاً على تنوعه وهويته، ولاسيما أصالته بالامتناع عن التجديد فيه بتمثله كمقدس يجب العمل به كما هو.

ما ميّز مدينة وهران كان نتاج جمعي لاحتلال الإسباني للمدينة حيناً، وللإمبراطورية العثمانية حيناً آخر، بخلف زحرة وانكسار القوة العسكرية الإسبانية بوصول الأتراك إلى المدينة عام 1516 م، وأمام هذا المدّ المتزايد من العطاء والتنوع في الوضع، وإن كان ينم في أغلبيته إلى طبيعة الاستنزاف، لكن هذا لم يمنع عن وجود آثار خلفتها الأجناس المتعاقبة على المدينة، ولاسيما نزوح المهجرين الموريسكيين من الأندلس سمع أكثر بتحديد هوية ثقافية إسلامية، لها امتداد في السبق إلى ما قبل ذلك، وإن كنا نرى بأن هذا من اختلاف المستعمر في تفكيك المجتمع العربي الإسلامي برمته وعليه، مسألة الهوية يكتنفها الغموض جرّاء التعسف والتعديّ الممارس وهذا موضوع آخر للهوية.

إنّ المستقرى في طابع الهندسة والزخرف الإسلامي ليجد أنه قد اتخذ البعد الديني المحض سواء الإسلامي أو حتى المسيحي، لكن قابلية التعلم والتثقيف خلق لدى الوهرانيين القدرة على تكييف طابع الثقافة الإسلامية مع متطلبات الواقع إلى إيجاد هوية تمثلت في اختلاق أصالة وتجديد، هو تجديد من خلال التغيير الذي طرأ على معالم المدينة، لكنه ضلّ كونه ينظر إليه كتشويه لعنصر الأصالة وهوية المدينة.

1 \* كلمة عامية سريانية تعني التبعر و تدل على الذي لا يحسن ضبط أموره.

2- المقري، نفخ الطيب، الجزء السادس، القاهرة، 1949، ص 279.

بالإمكان أن نلاحظ بأن المدينة خلقت الحوار المتوسطي لتفتحها على البحر المتوسط وحوضه من الشمال ومن الجنوب خلق لديها سمة التنوع والتعدد، والذي وسم المدينة بالإنتاج ساهمت فيه أيدي الاستيطان بالرغم من مثالبه، وكذا الثقافة العثمانية، التي لم تتوان عن الاهتمام بالفكر والثقافة والدين والحوار، كل هذا تأتي من خلال الانفتاح والاندماج مع الآخر، ما ساعد المدينة على هذا التنوع والثراء في ثقافتها هو سماحتها وتفتحها بقبول الحوار، والمتجلي في استقطاب إخوانهم من الموريسكيين للتفاعل والمساهمة في بناء المدينة والاستفادة من عطائهم لأهل المدينة.

وهران الامتداد:

إن قراءة التاريخ، يحدّثنا عن فكرة التشييد التي ترجع إلى: «التخطيط للمدينة بإيعاز إسلامي أندلسي ساهم فيه بني أمية الأندلسيين»<sup>1</sup>، مما يبين أهمية وهران في تموضعها في الامتداد لتكون قبلة الأندلسيين المسلمين المستقطين، كما استقطبت المهجرين والطامعين للانتقال عليها وتنصير أهلها، إلا أن عمق تراثها عبر التاريخ الإسلامي للأندلس، جعلها بمنأى عن إنحذات لإرثها وأصلتها، كل هذا انعكس بالإيجاب على أهلها بالرغم من الهزات، فاستشعارها بوعيتها كان واردا مما أحال عن ممارسة لخطاب آخر، عدا خطابها الديني المتأصل والممتزج بالتسامح والتجديد، هو التشبّع بالثقافة الإسلامية.

لقد حاول المؤرخون الأجانب على امتداد كبير جعل وهران مسيحية لما عرفته تاريخيا من عمليات للقرصنة ثم من خلالها أسر المسيحيين لكن مثل هذا الرأي نراه قد شكك نسبيا معالم المدينة في الإنتاج والحرف، لكن هذا يبقى واردا بنسبة كذلك، لأن بحسب المجتهدين بالمدينة وتراثها أنها أندلسية، «فهم في الحقيقة كونوا شبه جمهورية صغيرة مستقلة بمنطقة تمارس جزءا كبيرا من سيادتها»<sup>2</sup>.

لقد وجد الوافدون من الأندلس لمدينة وهران الأرض البور (friche) سمح لهم بالإنفعال والغنتاج كون سرعة الاندماج خلق إمكانية الحوار الفكري والثقافي، لخلق الاستثمار التجاري والصناعي وبتشجيع من السلاطين الأندلسيين لخلق الحركية في المدينة عمرانها، زراعيًا، تجاريًا وحتى سياسيًا، فكان التجديد السبقي قد تمثل في تولي الحجابة (الوزارة) وإسناد الوظائف الإدارية وكذا القيام بالمهام الدينية والتعليمية وهذا نتيجة تفتح المدينة وأهلها على الآخر، الآخر المتميز والقابل بالاندماج لخلق تركيبة بين التأصيل والتجديد.

أهم ما في المدينة من تنوع ساهم في إنتاج هذه التركيبة هو تعايش سكانها من بربر وعرب ثم أندلسيين ويهود، قد ساعد على إحداث الديناميكية داخل التركيبة الوهرانية بقبليتهم للآخر، الغير المنتحل لشخصيتهم وهويتهم، وبالتالي نرى شبه أمشاج لتراث متنوع يجعل الهوية هي ضرب من الوهم لتقييد الفرد والمجتمع وبالتالي تشكيكه في ثقافته ودينه للحيولة عن تطوره ومسايرته للآخر، الآخر المتميز هو.

تدلنا الآثار التاريخية: «أن وجود المسلمين واليهود والعرب منح للمسيحيين الإسبانية الاستمرارية في تطوهم التاريخي والحضاري»<sup>3</sup> الذي شكل لاحقاً أرضية خصبة للإنتاج الإسباني في مدينة وهران، جاء هذا من فعل الاندماج.

1- السيد أحمد يلبروري، وهران وضواحيها: اجتماعيًا، سياسيًا، اقتصاديًا، إبّان الاحتلال الإسباني 1505/1792م، شهادة الدكتوراه، بإشراف نور الهدى بوخلفة، قسم التاريخ سيدي بلعباس، 2006/2007، ص 8-10.

2- المرجع السابق، ص 11.

3- Claudio Sanchz Alboronsz ' Espana un cnigma historika ' Buenos Aïros ' p. 12.

هناك معضلة أخرى تضاف إلى واقع معيشي جزاء الفراغ المحدث من تهجير عمدي للمسلمين من الأندلس والتي شهدت على التطور والإنتاج المتعدد الأوجه والتي استحدثها المسلمون في الأندلس والتي أثرت بالسلب على الإسبان بعد نزوحهم « مما أحدث فراغا بين العمال المتخصصين واليد العاملة الماهرة على الساحة الإسبانية »<sup>1</sup> نجم عن هذا العجز اقتصادي فرض على الإسبان التوجه إلى العالم الخارجي خصوصا شمال إفريقيا لمدينة وهران، بحثا عن الموارد المتعددة لتكملة الفراغ المحصل لما فقدته من هجرة الأدمغة، أتاح هذا كله فرصة إنعاش مدينة وهران نظرا لهجرة الطاقات الحرفية والعلمية إليها، كان نتاج خارجي صرف، ولهذا قلنا أن تحديد هويتها كان من الخارج أكثر، وليس التسوية من دورها، حتى أن الفكر الإسباني كان يانعز من الفكر الإسلامي عربي يهودي، وبربري كمزيج أنعش الإنتاج الإسباني، ساهم في توسع المدينة علميا وفكريا ولاسيما اقتصاديا تجاريا، طبع بالطابع الإسلامي.

عام 1608 هي المنعطف الذي حدد عاملي القبول والرفض للمهجرين الأندلسيين (Moriscos) فكانت وهران الأرض التي قبلت بالحوار المتوسطي لاحتضان المغلوبين على أمرهم، قصد مشاركتهم والاستفادة من مهارتهم بمختلف توجهاتهم يهود وعرب ومسلمين على خلاف سكان الريف بالمغرب الأقصى.

لقد تحددت الهوية الإسلامية من خلال الاتصالات الأولى للمسلمين بالمسيحيين في فترات الدولة الإسلامية بالأندلس، والذي انعكس بالمثل في تشكيل الثقافة الإسلامية بمحاولة الغرب ربطها بالاستشراق لطمس الهوية، فكان التأصيل الإسلامي مانعا لصد هذه القيم الغربية عنا، والتي لم تتوان عن الاندماج بالهوية الإسلامية وثقافتنا، فكان الاستشراق شكل آخر لفك القيم وتشويهها، بجعل مدينة وهران إسبانية ثم فرنسية.

إن البعد الإسلامي والعالمي لمدينة وهران تجلى أكثر في عمرانها وسماحتها وقيمتها العالية والذي مكنها أكثر بخلق الاندماج وجعل المدينة إسلامية بثقافتها وقيمتها المعاصرة لتفتحها على الآخر وكسر مركزية الأنا التي طالما الغرب عكف على اعتمادها، فالأنا الغربية المتعالية في نرجسيتها عن هذا الآخر الذي يتلخص في كل ما يمثله التراث الشرقي، لقد تمثل هذا المبدأ في زرع الإحساس بالدونية في المشرق والنظر إليه بأنه الاوعي، لقد تكسرت مثل هذه المزايم، فعلاقة الأنا الغربية بالآخر، هي علاقة الوصي بالقاصر، لدرجة يصعب معها تخيل نهوض الغرب من دون احتلال الآخر وإخضاعه.

لقد عمل الغرب باستمرار بدءا من ما قبل العهد الأندلسي إلى اليوم إلى غرض الطرف عن الإرث الحضاري الشرقي في مختلف حقول المعرفة والثقافة متناسيا أن حضارة أوربا مدينة في صميمها لدول التي استعمرتها، حيث لاحظ إدوارد سعيد في معرض تحليله، حتى أن أشكال « الثقافة الجديدة »، التي بدأت مع القرن السابع عشر، وامتدت إلى القرن العشرين، وروج لها أعلام البرجوازية الصاعدة كحركة مناهضة « للغير »، أضحت ماثلة في العقلية الأوروبية أكثر، كان هذا السلوك دافعا إلى تكريس خلق الرعب على نحو غير تفاعلي، على أن « الشيء اليقيني أن الإسلام السياسي سوف يلتزم سبيلا لتعزيز القوة الحقيقية للدول الإسلامية بهدف التقليل من حالة ضعفها المتأصلة إلى أقل حد ممكن »<sup>2</sup>، في حين أن المدينة اتخذت الاعتدال والأصالة بتفتحها على الثقافات المتوسطية والمشاركة في إحداثها.

1- أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة بين الجزائر وإسبانيا، الجزائر، 1975، ص 46.

2- جراهام إي. فوللر-إيان أو. ليسر، الإسلام والغرب: بين التعاون والمواجهة، تر: شوقي جلال، مركز الأهرام للترجمة والنشر- القاهرة (مصر)، 1996، ص 191.

إنّ الدارس للفكر الغربي يرى أنّه اتخذ لنفسه مركزية توهمية على حساب الآخر، الآخر المختلف عنه والموصوف بالدونية، لا شيء إلا لكونه تميز عنه بدينه وأصالته وتفتحته على الثقافات الأخرى والمتوسطة خصوصاً، حيث عمل الغرب على تعميق اغترابه..

يتخذ مفهوم الاختلاف عند الغرب شكل الاعتراف بالآخر، لكنه ماقت لهويته المتأصلة ثقافياً ودينياً.

رغم ما في الآخر من نظرة ماقّة لفكره وأصالته، إلّا أنّ تأصيل الهوية يبقّ وارداً ولو شكّك في هويته أكثر من مرّة في اليوم، يدّ هذا على تفتحها على الثقافات المتوسطة عبر التاريخ وإلى اليوم، دون إهمال البعد الإسلامي والعقائدي لمدينة وهران، هذا الأخير مكنها للتفتح ومواكبة الآخر في مرحلة مثلت مكسب علمي وثقافي أساسه الحوار المتوسطي.

خاتمة.

بعد قراءتنا لمختلف المحطات العلمية والفكرية والتاريخية وقفنا على أنّ المبدأ الذي انتهجته المدينة كان هو ترسيخ الحوار الفكري والحضاري أثناء الاعتماد على التفاعل والاندماج الحضاري.

لقد استطاعت المدينة ممثلةً في مختلف الأعراف الدخيلة منها والأصلية أن تتكاثف وتجتمع لا شيء إلاّ الإنتاج والانفتاح على الآخر بخلق قنوات للحوار الحضاري والديني وهذا نعتقده جلياً في سماحة المدينة .

قائمة الهوامش والمراجع:

- عبد القادر المشرفي، الجزائر بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإسمانيين من الأعراب كبنّي عامر، 1 تحقيق: محمد بن عبد الكريم، بيروت، ص 12.
- \* كلمة عامية سريانية تعني التبعر و تدل على الذي لا يحسن ضبط أموره.
- المقرّي، نفخ الطيب، الجزء السادس، القاهرة، 1949، ص 2.279
- السيد أحمد يلبوري، وهران وضواحيها: اجتماعياً، سياسياً، اقتصادياً، إبان الاحتلال الإسباني 31505 /1792م، شهادة الدكتوراه، بإشراف نور الهدى بوخالفة، قسم التاريخ سيدي بلعباس، 2006/2007، ص 8-10.
- المرجع نفسه، ص 4.11
- 5- Claudio Sanchz Alboronsz ' Espana un cnigma historika ' Buenos Aïros ' p. 12.
- أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة بين الجزائر وإسبانيا، الجزائر، 1975، ص 6.46
- جراهام إي. فولر-إيان أو. ليسر، الإسلام والغرب: بين التعاون والمواجهة، تر: شوقي جلال، مركز الأهرام للترجمة والنشر - القاهرة (مصر)، 1996، ص 191.